University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد التاسع - سبتمبر 2016

فاعلية القبيلة بطرابلس الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

د. أحميدة سالم حماد.

(استاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الاداب - جامعة طبرق – ليبيا)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد التاسع - سبتمبر 2016

فاعلية القبيلة بطرابلس الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

ملخص:

يعد النظام القبلي من أبرز العوامل التي أثرت في تشكيل الحياة السياسية في طرابلس الغرب، وتعد القبيلة عنصراً أساسياً من مكونات المجتمع فالولاء القبلي أدى دوراً كبيراً في النظام السياسي لا يمكن تجاهله أو إلغاؤه ، وإن استمرار حضور القبيلة في المجتمع الطرابلسي شكل نوعاً من أسباب التماسك الاجتماعي وقوة حضور البنية العائلية وهيمنة النزعة الاستقلالية ، وهي عناصر إيجابية لا يمكن التنكر لها. فقد شكل المجتمع الطرابلسي من فئات عديدة، محلية ذات أصول بربرية وعربية ورغم استئثار هذه الفئة بالمناصب الإدارية، كالقضاء والإفتاء والإمامة، فإن دورها السياسي كان ثانويا بسبب انشغالها بمصالحها المادية ولعدم انسجام تركيبتها البشرية. وهناك فئات أخرى وافدة كالأتراك العثمانيين ، والكراغلة، أما فئة الدخلاء فكانت تضم الأوروبيين(تجارا وأسرى)، واليهود، وكانت هذه الفئة الأخيرة اليهود على درجات متفاوتة من حيث المكانة الاجتماعية، ويتمتعون بهامش من الحرية، مكنتهم من الاندماج في المجتمع الطرابلسي، مع تمتعهم بحرية المعتقد الديني، ورغم ذلك فقد كانوا يعانون من نوعاً من التمييز في المظهر والسلوك والتملك. ومع حدوث الكوارث الطبيعية التي أدت إلى تضرر الاقتصاد والذي أثر سلباً على الحالة الصحية والتعليمية والمعيشية، كما انعكس بدوره على الوضع الاجتماعي بعدم استقراره من حيث العدد والكثافة، ويعود هذا التدهور في الجانب الاجتماعي السلطات الحاكمة في طرابلس بأمور التعليم والصحة. تميّزت علاقة الحكم العثماني بالسكان بمظهرين اثنين: الخضوع والولاء في المدن والسهول، والتمرد في الجبال والمناطق المعزولة عاملا أساسيا في تحديد العلاقة بين إدارة الحكم العثماني من جهة، وفعاليات المجتمع ، حيث كانت العلاقة بين المجتمع القبلي السلطات يخلص في اغلب الأحيان إلى أن استقرار الأوضاع السياسية في طرابلس لفائدة الأتراك العثمانيين، ذلك يعود إلى قدرتهم على إخضاع سكان الأرياف المعودين على التمرد، عن طريق الاعتماد على القوى المحلية النافذة، من شيوخ القبائل، ورجال الدين، والمخزن، لفرض الأمن، وجمع الضرائب، مقابل حصول هؤلاء على امتيازات اقتصادية هامة.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد التاسع - سبتمبر 2016

Effectiveness of tribe in Tripoli in the eighteenth and nineteenth centuries

Dr. Ahamida Salem Hammad

Professor of Modern History at the Faculty of Arts, University of Tobruk

Abstract

Tribal system was one of the most important factors that influenced the formation of political life in Tripoli community in the eighteenth and nineteenth centuries. Tribe as a significant unit of Tripoli community played a vital role in shaping the societal attitude towards independence. Tribal loyalty considerably influenced the political system since it strengthened the unity of Tripoli society and formed the role of families in independency issue. The harmony of Tripoli community basically included local Arabs and Barber who were in charge of the administrative, legislative and religious authorities. It consisted also some other minorities like Ottoman Turks and migrants groups such as Jews and Europeans who were Traders and Prisoners. Despite the inconsistent societal harmony of Tripoli community, these minorities to some extent had their own societal status and right to practice their traditions and religions. However, the nature of relationships between these societal groups negatively impacted the local made efforts towards independence. During the eighteenth and nineteenth centuries, natural disasters led to economic damage which also negatively impacted living conditions, education and health, which led to instability in Tripoli community, impacted its unity and reduced its population. In general, the relationship between local citizens and Ottoman rule was characterized by loyalty and obedience in cities and plains; and by insurgency in mountains and isolated areas. This position impacted in a different way the relationship between Tripoli community and Ottoman authority. In conclusion, Ottoman authority was often able to overcome any faced difficulties by relying on force and the influence of local leaders like tribal elders, religious leaders and clerics to impose tax and control the community.

مقدمة

يمثل التاريخ الاجتماعي في العهد العثماني مكاناً هاماً بين الدراسات التاريخية الحديثة لما لهذه المرحلة من أهمية في تحديد الأسس الرئيسة لبيئة المجتمع الليبي ، وإذا كانت السلطة العثمانية قد انتهت إلا أن دور القبيلة في المجتمع المعاصر لم ينته، حيث استمرت القبائل تؤدي دورها إلى الآن .

فقد بينت سلسلة الأحداث السياسية والعسكرية في العقود الماضية أن القبيلة بمفهومها الواسع لاتزال تؤدي الدور الأساسي في رسم مصير الكيانات الاجتماعية والسياسية لاسيما في أفريقيا وفي بعض مناطق العالم بعدما أصبحت القبائل وأدوارها من الماضي البعيد في أجزاء أخرى من العالم المتقدم، وحلت مكانها الجدارة بالعيش والقدرة على متابعة الأنماط الحديثة من التطور التكنولوجي والاقتصادي وما يدور منهما في مراكز البحوث.

إن استمرار حضور القبيلة في المجتمع الطرابلسي شكل نوعاً من أسباب التماسك الاجتماعي وقوة حضور البنية العائلية وهيمنة النزعة الاستقلالية ، وهي عناصر إيجابية لا يمكن التنكر لها .

يعتبر النظام القبلي من أبرز العوامل التي أثرت في تشكيل الحياة السياسية في طرابلس وتعد القبيلة عنصراً أساسياً من مكونات المجتمع فالولاء القبلي يلعب دوراً كبيراً في النظام السياسي لا يمكن تجاهله.

لذا ومن اجل فهم هذا الدور لابد من تناول الأبعاد التاريخية له من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحديد الأدوار التي أدتها القبيلة وتحديد توجهاتهم في رسم تاريخ المجتمع الليبي، وربما رسم سياستها في المستقبل، وتحديد ما إذا كانت العلاقة مع السلطة العثمانية شراكة تاريخية أساسها الدين والمصالح المشتركة أم استعمار كان الأجدى بأهالي طرابلس ممثلاً بتجمعاتهم القبلية مقاومته والتخلص منه.

قسم البحث إلى مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة، جاء المبحث الأول بعنوان التركيبة السكانية لطرابلس , وتناول المبحث الثاني موقف السلطات من المجالين التعليمي والصحي، وتطرق المبحث الثالث إلىطبيعة علاقة السلطات بالقبيلة، وجاءت الخاتمة في نهاية البحث لتبرز النتائج التي توصل إليها البحث، ولكي يتسنى لنا تغطية الموضوع بشكل متكامل وبطريقة توصلنا إلى ما نهدف إليه، اعتمدت هذه الدراسة على المنهج السردي والتحليلي في معظم الأحيان وذلك من خلال سرد الأحداث وتحليلها ، بهدف إبراز الجوانب الايجابية ومعرفة الجوانب السلبية في تاريخ هذه العلاقة، وصولاً إلى الخروج بصورة متكاملة للبحث التاريخي، مع ضمان تماسك البحث وتسلسله.

ولقد اعتمدت في هذه الدراسة على بعض الوثائق والمصادر والمراجع، وأخص بالذكر الوثائق غير المنشورة وملفاتها في المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية بطرابلس،ووثائق أخرى منشورة في بعض الكتب ، بالإضافة إلى الصحف والمجلات التي كانت تصدر بعيد فترة الدراسة بسنوات قليلة ومجموعة من الكتب العربية والمعربة والكتب الأجنبية.

التركيبة السكانية لطرابلس

تعد العلاقة بين الدولة والجماعات القبيلة مسألة جوهرية عند دراسة نشأة الدولة الوطنية الحديثة ومتابعة تطورها في بلاد المغرب العربي ، فهذه العلاقة كانت متداخلة ومتوترة حتى أواخر القرن التاسع عشر،وعليه فإن المجتمع الطرابلسي كان مجتمعا قبلياً في طبيعته وتركيبته، فالقبيلة كانت وحدة اقتصادية واجتماعية وسياسية، بنيت أساساً حول العائلة، والتي كان يرأسها رجل يتبعه أفراد العائلة، ومن مجموعة هذه العائلات تتكون العشيرة والتي من مجموعها تتكون القبيلة أو القبائل، لذا بقيت القبيلة العصب الأساس للتركيبة الاجتماعية للمجتمع، وعلى أساسها تدار الكثير من الأمور، وتنجز الكثير من الأحداث. فلق سجل التاريخ الكثير مما جرى بين القبائل الليبية، من منازعات وغزوات وحروب، وتحالفات تحفظ الدعم والإسناد عند لحاجة، الأمر الذي أوجد بعض الحساسيات بين القبائل.

إن المجتمع الطرابلسي كان مجتمعا قبلياً في طبيعته وتركيبته، فالقبيلة كانت وحدة اقتصادية واجتماعية وسياسية، بنيت أساساً حول العائلة، والتي كان يرأسها رجل يتبعه أفراد العائلة، ومن مجموعة هذه العائلات تتكون العشيرة والتي من مجموعها تتكون القبيلة أو القبائل[1].

فلقد كان المجتمع في ولاية طرابلس الغرب يتألف من مزيج من عدة أجناس ، وهم العرب و البربر وهم سكانها الأصليون ، فضلاً عن نسبة كبيرة من العثمانيين والسمر، ويبدو أن عدد السمر كان كبيراً جداً بسبب تجارة الرقيق ، كما كان بعضهم من بقايا الهجرة الزنجية القديمة إلى المغرب العربي ، وكانت لهم القرى الخاصة بهم ، وكان بعضها حول مدينة طرابلس وهم من ناحية أخرى كانوا يشكلون القوى العاملة أي قوى الإنتاج في مجالات الزراعة والرعي والتجارة والصناعة البيتية .

ومن الناحية الدينية فقد كانت غالبية السكان منحدرين من المسلمين ، الذين ينتمون إلى المذهب المالكي والإباضي والأحناف المرافقين للعثمانيين ، فضلاً عن وجود اليهود الذين قدموا إلى طرابلس في أوقات متفاوتة ، ونصارى من الجاليات الأجنبية.وتسود ثقافة والميثولوجيا لكون طرابلس وسط هذا المجال ، أما بالنسبة للغة فهي العربية والبربرية الممتزجة باللغة العربية مع وجود هامش بسيط للغة والثقافة التركية لكونها لغة وثقافة الفاتحين الأتراك العثمانيين، وتمتد جذور البربر(الأمازيغ) إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، وهم يعيشون في المدن والقرى والبوادي، أما وجود السكان أو القبائل العربية فهم على العموم نتاج موجات الفتوح الإسلامية في القرن السابع الميلادي والموجات الأخرى في القرون اللاحقة ، التي دفعت التبادلات المناخية وما رافقها من سغب متواصل في بيئة الجزيرة العربية . أما الأتراك أو القولوغلية[*] فهم نتاج الموجة الأخيرة من الفتوح ، وهي الفتح العثماني (التركي) في القرن السادس عشر، فضلاً عما رافق ذلك من نزوح جماعي للموريسكيين[*] من شبه جزيرة أيبريا بعد سيطرة الأسبان والبرتغاليين على شبه الجزيرة في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر[2] .

وقد احترف سكان المدن منهم التجارة ، أما أهل القرى فقد عملوا في الزراعة ،فضلاً عن البدو فقد كان هناك أعداد كبيرة من المنفيين من معارضي السلطة العثمانية ، إذ أصبحت ولاية طرابلس الغرب منفىً مثالياً ، والتي كانت تتميز بوجود الأسوار العالية والقلاع الحصينة ، وبعد المسافة فضلاً عن عزلتها عن العالم الخارجي، أما اليهود فقد شكلوا فئة من سكان الولاية ، ويرجع وجودهم فيها إلى عهد البطالسة

---

(1) عبد اللطيف أحميدة ،المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص78.

(*) القولوغلية هم نتاج التزاوج بين الجند الانكشارية والنساء المحليات ، فكانوا فئة مرموقة لاسيما عندما وصلوا إلى حكم إيالة طرابلس في القرن الثامن عشر،إسماعيل كمالي، سكان طرابلس الغرب، ترجمة حسن الهادي، طرابلس، طرابلس 1997، ص60.

(*) وهم المسلمون النازحون من شبه جزيرة أيبيريا ، فكانوا بحكم البيئة التي قدموا منها أكثراً تطوراً من السكان المحليين .

(2) شوقي عطاالله الجمل ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة : 1977م) ، ص 377.

في مصر، الذين شجعوا اليهود على الاستيطان في برقة ، وأخذت أعدادهم تتزايد بمرور الوقت ، واخذوا ينعمون بالرفاهية والاستقرار في ظل الحكم العثمانية ، ومارسوا العديد من الأعمال في مقدمتها التجارة ، فضلاً عن صياغة الذهب والفضة وصناعة الخمور والعمل في الصيرفة(3).

وكان التطور في بنية الحياة الاجتماعية في طرابلس بطيئاً جداً وغير محسوس حيث احتل الأتراك العثمانيون قمة الهرم الاجتماعي في المدن ، فقد كانوا يحيون حياة رغدة مقارنة بباقي السكان ومنعزلين عنهم ، فالتركي هو مالك للأرض الزراعية والمراعي ، ولكنه فخور بعمله العسكري ولا يميل إلى فلاحة الأرض التي يملكها حيث يفلحها الفلاح المحلي، مما خلق نوعاً من العداء بين فئة الأتراك وباقي السكان(4).

أما المجموعة السكانية التي تمثل المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي فهم الأعيان ، الذين كسبوا مراكزهم الاجتماعية من خلال عملهم بالتجارة أو الوظائف الحكومية، وقد أدت هذه الفئة دور الوسيط بين الأهالي والحكومة العثمانية ، فأكدوا على وضعهم الاجتماعي والاقتصادي ، حتى وصل الأمر أن أعفي معظمهم من أداء الضرائب . ويأتي بعد هؤلاء الفلاحون والحرفيون وغيرهم ، وهم يمثلون الغالبية العظمى من السكان ويحيون حياة بائسة فقيرة جداً فهم عماد النشاط الاقتصادي في الأرياف والمدن وهم دافعو الضرائب، ويوجد أيضا الجاليات الأجنبية ، أهمها الجالية اليهودية التي كانت تمتلك ثروات هائلة نتيجة التعامل بالربا والقيام بدور الوسيط في كل العمليات التجارية(5) ، فضلاً عن الأسرى المسيحيين الذين كانوا يعاملون معاملة حسنة، ليس بكونهم رقيقاً بل لكونهم رقيقاً أبيضاً إذ يذكر الرحالة الأسباني(باديا لبليك) المعروف باسم على بك العباسي مدينة طرابلس في زيارته لها في عام 1805أن في إمكان معتنقي الإسلام منهم أن يحتلوا مناصب عالية في الدولة(6) .

وقد شكل سكان الأرياف والبادية الغالبية الساحقة التي كانت تمارس الفلاحة وتربية الماشية ، ويمكن تصنيفهم حسب موقفهم من السلطات: فريق يتعامل مع السلطات محاولين الإفلات من دفع الضرائب فهم يمارسون الزراعة والتجارة ويقطنون المناطق القريبة من طرابلس مثل المنشية، وفريق خاضع مباشرة للسلطة العثمانية وهم فلاحون مستقرون في السهول المروية، فريق ثالث مستقل عن النفوذ العثماني المباشر وبعيد عن سلطة السلطات العثمانية، وهذا الفريق يتكون من قبائل البادية القوية لاسيما في الجهات القاصية عن طرابلس في الجهات الشرقية ومنطقة الجبل الغربي أو فزان(7)، وفي هذه الظروف كان للعوامل الاجتماعية، لاسيما التقاليد والقيم القبلية دور في حياة أهالي طرابلس ، وامتد هذا الدور ليطول مجالات عدة في المجتمع كان التعليم أحدها(8) .

كانت العلاقات بين أهالي الريف خارج مدينة طرابلس تقوم على أساس الارتباط القبلي، وضم المجتمع عدداً من القبائل، كانت من بينهم جماعات العرب القدماء أو عرب ما قبل الإسلام، وعرب استوطنوا البلاد بعد الإسلام، حيث كان المجتمع البدوي بعيداً عن سلطة الدولة، وقد كانت تحكمه العادات والتقاليد

---

(3) محمود ناجي ، طرابلس الغرب ، ترجمة : أكمل الدين محمد إحسان ، دار مكتبة الفكر ، (طرابلس : 1973م) ، ص164 ؛ اسماعيل كمالي، مرجع سايق، ص47 - 48 ؛ حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، 1962 ، ص 180 ؛ أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، د.ب ، الفنية الحديثة ، 1971 ، ص28 .

(4) محمود صالح المنسي ، " بريطانية والحملة الايطالية على طرابلس الغرب " ، دراسة وثائقية ، مجلة البحوث التاريخية ،العدد2 ، طرابلس : 1980م ، ص 2 .

(5) خليفة محمد الأحول ، الجالية اليهودية في ولاية طرابلس 1864-1912م ، كلية التربية ، جامعة الفاتح ، 1885 م ، ص122؛ أتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي الإسلامي حتى 1911، ترجمة خليفة محمد التليسي ، ط2 ، الإسكندرية ، الدار العربية للكتاب ، 1991، ص386-392 .

(6) خليفة محمد التليسى، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ، مالطا ، الدار العربية للكتاب، 1974م ص 143 .

(7) الصالحين جبريل الخفيفي ، النظام الضريبي في ولاية طرابلس الغرب 1835-1912م ، طرابلس ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2000م ، ص32-33 .

(8) آمال إمحمد الطالب ، الحياة الأسرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1835م-1911م)، طرابلس، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2006م ، ص29 .

والأعراف البدوية، وحياتهم بسيطة يعيشون في خيام يحترفون الرعي والزراعة وينتقلون في مناطقهم مع تتابع فصول السنة(9).

غير أن الوضع كان ينطبق على مناطق الدواخل دون المدن الساحلية لطرابلس،حيث كانت القبيلة من الضعف بالقدر الذي لم يسمح لها بتكوين أي قوة سياسية، فعلي الرغم من تقسيمها إلى قبائل وعشائر فإن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية جردتها من قوتها وبرزت العائلات على أنقاضها لتصبح الوحدات الاجتماعية الحاسمة في الشؤون العامة، ومن ثم فكل فرد استمد وضعه الاجتماعي من انتمائه العائلي أكثر من انتمائه القبلي، ويرجع ذلك إلى أن الإصلاح الإداري للسلطات العثمانية من نظام قضائي ومحاكم وشرطة ومجالس محلية، قد ساهم في تفكك القبيلة وانقسامها إلى عائلات(10).

كان البناء الاجتماعي يتكون من ثلاثة مستويات من الأعلى إلى الأسفل، القبيلة ثم العشيرة ثم العائلة، وكان لكل مستوى من هذه المستويات شيخ، وفي هذا المجتمع الذي تحكمه الروابط القبلية كان للشيوخ والزعامات المحلية دور كبير في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد ساهم انهيار الأسرة القرمانلية في تقوية نفوذ الزعامات المحلية، وخاصة في مناطق الدواخل بعد حصولهم على امتيازات ونفوذ في مناطقهم بعيداً عن تدخلات السلطة العثمانية، ولقد أدركت السلطة العثمانية قوة تلك الزعامات ونفوذها في مناطقها وقبائلها،فاتبعت معهم سياسة المهادنة والتقرب، ومنحتهم بعض السلطات مثل جباية الضرائب المفروضة على قبائلهم، مع منحهم حوافز مادية لقاء عملهم(11)، حيث انتهجت السلطات العثمانية هذه السياسة مع الزعامات المحلية خاصة في المناطق التي من الممكن أن نقول أنها خارج سلطتها الفعلية(12)،غير أن السلطات العثمانية شعرت في أواخر العهد العثماني بضرورة تقليص امتيازات شيوخ القبائل بعد أن تعاظمت إمكانياتهم الاقتصادية الفردية، وازدادت أعدادهم، فحدد الباشا أحمد راسم أصول انتخاب شيخ القبيلة لحصر وتقليل أعدادهم، وكذلك تحديد ما يترك لهم من أموال الضرائب(13).

أما من حيث تقسيم المجتمع فئوياً، ففي ظل السياسة التي اتبعت من قبل السلطات العثمانية في طرابلس وجراء تطبيق نظام المجالس المحلية للمناطق أدى ذلك إلى بروز فئة جديدة من الأعيان والذين تبوئوا مناصب وظيفية في الإدارة مثل، قائمقام ومدير ومأمور ضرائب وغيرهم، وهؤلاء مثلوا أعلى طبقات السلم الاجتماعي(14)،بالإضافة إلى أن السلطات العثمانية استحدثت نظام مشيخة البلد، وهو منصب يتولاه أحد وجهاء البلد حيث يختص بفصل الخصومات بين أصحاب الحرف، ويتبعه عدد من مختاري المحلات وأمناء الحرف وهم حلقة وصل بين الأهالي والسلطات العثمانية(15)وهذه الفئات وجدت السلطات العثمانية فيهم إحدى الدعامات الأساسية لبسط نفوذ الإدارة والحكم على طرابلس.

ويأتي في المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي العلماء والمرابطون والدراويش وزعامات الطرق الصوفية، والذين يطلق عليهم عادةً بأهل العلم، ولقد اهتم بهذه الفئة السلطات العثمانية من الناحية السياسة وحتى من الناحية الشخصية وخاصة في مسألة الدعاء لهم وللسلطان العثماني، وهي أمور كان لها الأثر الحسن في قلوب الأهالي ناحية السلطات العثمانية في البلاد(16).

---

(9) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال ... ، مرجع سابق ، ص221.
(10) صلاح الدين حسن السوري ، " وضع العائلة في التركيبة الاجتماعية الليبية وتأثيرها السياسي " أعمال ندوة المجتمع الليبي (1835-1950)، تحرير محمد الطاهر الجراري، طرابلس منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2000م. ص216،217.
(11) وثيقة رقم 14 ، ملف الضرائب ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس .
(12) Evans- pritchard E.E , The Sanusie of Cyrenaica, London,Oxfordprees 1949) , p.96
(13) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال ... ، مرجع سابق ،ص120.
(14) سالنامة ولاية طرابلس الغرب ، بتاريخ 1894م ، ص102.
(15) بلدية طرابلس ، بلدية طرابلس في مائة عام 1870-1970، دار الطباعة، طرابلس،1971م، ص95.
(16) وثيقة رقم 489 ، ملف الضرائب ، بتاريخ 1862م ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس .

فالسكان من ذوي الأصول المحلية، لسانهم- بطبيعة الحال - عربي، ذلك لأن أكثرهم لم ينخرط في إدارات السلطات العثمانية، بسبب السياسة التي فرضتها السلطات العثمانية تجاه رعاياها ممن اشتغلوا بإداراتها[17]، ووفدت إلى مدينة طرابلس عناصر عربية من بلاد المغرب والأندلس امتزجت مع التركيبة السكانية للمدينة، ونتيجة للظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية برز منهم فئة من الأعيان والوجهاء والمقربين لدى الباشا وكبار رجال الدولة[18]، ولعبوا دوراً كبيراً على الصعيد السياسي، وتقلدوا مناصب هامة في الدولة من جامعي الضرائب وغيرها[19]، ووفدت أيضاً إلى طرابلس أسر يمنية بعد نفيهم من قبل الحكومة العثمانية من مناطقهم[20]، كما وفدت إلى مدينة طرابلس جماعات من رعايا الدولة العثمانية من غير العرب من الضباط الشراكسة الذين جاءوا إلى مدينة طرابلس بالإضافة إلى الذين نفوا إلى طرابلس حيث أقاموا فيها واختلطوا مع السكان الأصليين[21]كما نفي إلى طرابلس في تلك الفترة عدد من زعماء الأكراد، ومجموعة كبيرة من العسكريين الشبان الأتراك بعد أن شهدت المدارس العسكرية العثمانية في الأستانة نشاطاً سياسياً سريا [22].

موقف السلطات من المجالين التعليمي والصحي

وفي هذه الظروف لاسيما التقاليد والقيم القبلية دور في حياة القبيلة طرابلس ، وامتد هذا الدور إلى مجالات عدة في المجتمع كان التعليم أحدها[23] .فكان التعليم السائد في المجتمع الطرابلسي آنذاك، هو التعليم الديني الموروث في المساجد والمؤسسات الدينية الأخرى ، فقد بقي المسجد مؤسسة دينية ضخمة أدت أدواراً مهمة فتارة هو الوعاء الذي حفظ للمجتمع هويته العربية وثقافته وتراثه الإسلامي، والذي كان أكثر انتشاراً وأكثر قبولاً ، وتارة أخرى فهو المدرسة أو الجامعة ، لذا فقد كان التعليم الديني في المساجد أعمق أثراً من أي نوع آخر من التعليم[24] ، حيث انحصر التعليم فيها بالكتاتيب المنتشرة في المدن والقرى والمناطق الريفية ، فكان الشيوخ يقومون بتعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن في مقابل أجور عينية، كان الآباء يدفعونها إلى مشايخ تلك الكتاتيب ، وتتمثل هذه الأجور عادة بالتمر أو الزيت أو القمح[25] وتارة ثالثة تبنت المساجد دور الإعلام والمؤسسة المعرفية في نشر المعرفة والثقافة الدينية ، وإن كان الواقفون على هذه المساجد قد وضعوا نظاماً في تسيير الناحية العلمية والإدارية ، واعتمدوا في الدعم المالي لهذه العملية التعليمية على أموال الأوقاف[26]، أي تحبيس عقارات كثيرة العدد يكفي دخلها السنوي في تغطية كامل المصروفات اليومية المتعلقة باستمرار الدراسة ، وأداء الصلاة وتوفير المياه والإنارة والفرش والصيانة الخاصة بالمبنى ونظافة المكان[27] . ولم يحظ كل أهالي طرابلس بهذا النوع من التعليم، وذلك نتيجة الوضع الاقتصادي الصعب الذي كانوا يحيونه لاسيما الفلاحون، لذلك لم يهتم به الأهالي

---

(17) هـ .س. كاوير ، مرتفع الآهان الجمال (استكشاف الهياكل الثلاثية والمواقع المغليثية في طرابلس) ، ترجمة أنيس زكي حسن ، طرابلس، دار الفرجانى ، 1987م ص26 .

(18) صحيفة العصر الجديد ، العدد ، السنة الأولي ، بتاريخ 1912م .

(19) صحيفة المرصاد ، العدد الحادي والعشرين ، السنة الأولى ، 1913م .

(20) أحمد صدقي الدجاني ، وقائع من تاريخ ليبيا الحديث (1881-1911) ترجمة عبدالسلام أدهم ، بيروت ، دار صادر ، 1974م ، ص230.

(21) شارل فيرو ، الحوليات الليبية ، ترجمة محمد عبدا لكريم الوافي، ط4، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1998م، ص731.

(22) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال ... ، مرجع سابق ، ص230.

(23) آمال إمحمد الطالب ، الحياة الأسرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني 1835-1911، طرابلس، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2006، ص29 .

(24) محمد الكوني بالحاج ، التعليم في مدينة طرابلس في العهد العثماني الثاني 1835-1911،(طرابلس ، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2000)، ص87 .

(25) آمال أمحمد الطالب ، مرجع سابق ، ص29.

1. (26) محمود الديك ، " بعض الملامح الثقافية من خلال سجلات المحاكم الشرعية خلال العهد العثماني "من كتاب أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات، زليطن 1988م، طرابلس، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 1992م، ص289 .

(27) محمد أمحمد الطوير " دور المسجد في إثراء الحياة الفكرية بولاية طرابلس الغرب خلال الحكم العثماني 1551-1911" ، أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات ، مرجع سابق ، ص503 .

كثيراً، إلا بعض الأسر الميسورة الحال أو صاحبة النفوذ القادرة على إرسال أبنائها إلى الزوايا والمدارس الدينية التعليمية الموجودة داخل البلاد وخارجها ، كما كان الحال لبعض أسر طرابلس التي أرسلت أبناءها للدراسة في الأزهر الشريف أو بعض الأسر الميسورة في غدامس التي كانت ترسل أبناءها إلى تونس لدراسة القرآن وتعاليمه هناك[28]، إلا أن هذه الجهود لم تحل دون تدنى مستوى التعليم وانتشرت الأمية بين أهالي طرابلس بشكل كبير جداً.

وقد انتشرت الحركة السنوسية بينهم وخاصة في شرق وجنوب طرابلس ، ولعبت دوراً كبيراً في الاستفادة من طاقاتهم ، ونجحت في تنظيم مجتمعهم ضمن نظام الزوايا، وكانت طبيعة هذا المجتمع انعزالياً ، إذ كان بعيداً عن سلطان الدولة ، لأنه تأقلم وتطبع بطبائع البيئة التي يعيشها ، وكانت الأعراف والعادات والتقاليد البدوية ، هي التي تحكم هذا المجتمع ، وان لم تجد شيئاً ، فقد كانت القوة هي التي كانت تحكم الموقف لحل الخلافات وعقد الاتفاقات، وكان الطابع البدوي يتصف بالخشونة والصلابة وكانت البساطة والصفاء منبثقة من نفوسهم ، وتنبع منها الخصال النبيلة تسترعي الإعجاب ، وكانت حياتهم بسيطة إذ كانوا يعيشون في خيام ، ويمتهنون الرعي والزراعة ويتناقلون في مناطقهم مع تتابع الفصول ، بسبب عزلتهم فقد كانوا جاهلين بالعالم الخارجي المحيط بهم، كما لاحظ المستشرق الإنكليزي ريتشارد ، والذي سكن بينهم لفترة ، بأنهم بالرغم من جهلهم الكبير يمتلكون خصالاً نبيلة تنال إعجاب كل من عاش بينهم ، فكانوا متمسكين بدينهم ، على الرغم من جهلهم أحكامه وتعاليمه، لسانهم فصيح طلق بالعربية[29].

وفي سبيل ربط طرابلس بالدولة العثمانية وكسب ثقة القبائل،وتقوية الولاية بالأستانة عن طريق أبناء الأعيان وشيوخ القبائل ، أرسلت الحكومة العثمانية تعليماتً إلى شيوخ القبائل بفتح مدارس خاصة لتعليمهم، وفي هذا الإطار تم فتح مدرسة أطلق عليها اسم مكتب العشائر، يدرس فيها الطلاب لمدة خمس سنوات وبها أقسام داخلية[30]، حيث التحق من طرابلس أربعة طلبة عام 1892م بهذه المدرسة [31]، وفي عام 1894م أرسل إلى مدرسة العشائر خمسة طلاب من ولاية طرابلس[32]، وفي عام 1896م طلب نامق باشا من المسؤولين في غريان اختيار ثلاثة أطفال للانتساب إلى مكتب العشائر وأن يكونوا من أبناء مشائخ القبائل[33] ، وقد كان يُدفع للطالب الموفد من ولاية طرابلس إلى هذه المدرسة مبلغ ست ليرات ذهبية علاوة مبيت وسفر، وقد تخرج فيها عشرات من أبناء القبائل ، هذا ما دعا السلطات إلى طلب الموافقة على مضاعفة عدد الموفدين إليها بعد أن تبين للجميع في طرابلس أهميتها بعد عودة عدد من الخرجين إلى المنطقة [34].

وفي ظل هذا المناخ التعليمي ازدادت وتأصلت الطرق الصوفية بين المجتمع الطرابلسي في المدن والقرى بشكل واسع وحاول الحكام التقرب من شيوخ هذه الطرق نظراً لما يتمتع به هؤلاء من نفوذ وتأثير في أوساط الأهالي، فعن طريقهم نجحوا في إلباس حكمهم ثوب الشرعية الدينية، وبهذا شكل رجال الدين طبقة اجتماعية لها مكانتها الأدبية والمادية داخل المجتمع الطرابلسي[35]، فضلاً عن ذلك كان الحكام القرمانليون في ساعات ضعفهم وتألب الناس ضدهم يأتون إلى الشيوخ والمرابطين ليستمدوا منهم البركة ويسألونهم قراءة ما يخبئ لهم القدر في المستقبل ، فمثلاً كان يرافق يوسف باشا في صراعاته مع إخوته

---

(28) محمد بن عثمان الحشائشي ، رحلة الحشائشي إلى ليبيا 1895، تقديم مصطفي المصراتى ، دار بيروت ، 1960 ، ص127.
(29) نيقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، بيروت : 1966 ، ص43
(30) بايرامكودامان ،" السياسة الثقافية التي اتبعها السلطان عبدالحميد الثاني في سياسة لليبيا تجاه الامبريالية الغربية " ، المؤتمر الثاني للعلاقات العربية التركية ، ج2 ، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس ، 1982م ، ص524.
(31) وثيقة رقم 59 ، ملف التعليم ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس .
(32) وثيقة رقم 148 ، ملف التعليم ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس .
(33) وثيقة رقم 139 ، ملف التعليم ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس.
(34) تيسير بن موسى ، المجتمع العربي الليبي في العثماني ، طرابلس ،1988، ص350.
(35) نفس المرجع ، ص66 .

أحد الشيوخ[36]، وأصبح لكل قبيلة ولي يحميها ويشملها ببركته ويرد عنها كيد الكائدين وهذا ما يفسر كثرة الأولياء في المنطقة[37]، ومن الممكن القول أن هذا الوضع ساعد على سيطرة هؤلاء المشايخ على العملية التعليمية في البلاد ، وساعدوا بقصد أو بغير قصد على تدنى التعليم في المنطقة، فوجد الناس أنفسهم في المقاهي العامة لتبادل الإخبار والقصص والنوادر وملء الفراغ ، فقد أشارت الآنسة توللي إلى وجود مجموعة كبيرة من المقاهي يرتادها الناس في مدينة طرابلس فساعدت بشكل ما على معرفة الناس وتشكيل ثقافتهم[38] ، فقد أشار (باديا لبليك) أن مدينة طرابلس كان بها ستة مساجد كبيرة وستة مساجد أخرى صغيرة، وأكبر هذه المساجد في نظره مسجد أحمد باشا القرمانلي، وثمة ثلاثة سجون بالمدينة اثنان للأهالي والثالث خاص بالأتراك، كما أشار إلى وجود حانات ومقاه كثيرة يديرها أناس مسلمون[39]، وهذا يدل على مدى الانفتاح والتعايش بين فئات المجتمع الطرابلسي وربما الجاليات الأخرى غير المسلمة .

وكانت البلاد تشهد احتفالات كبيرة في المناسبات الدينية ، فمثلاً كان الاحتفال بالمولد النبوي من المناسبات المهمة في البلاد ، حيث تحيى الاحتفالات حتى الساعات الأولى من الصباح، وتأتى الوفود الشعبية إلى طرابلس من جميع المناطق المجاورة، ويحضر الباشا نفسه هذا الاحتفال، وتقام احتفالات أخرى في باقي الأعياد الدينية[40] .

في هذا الوقت حظيت بعض الفئات بتعليم حديث ، منها الجالية اليهودية ، فقد استفادت هذه الطائفة من الامتيازات لاسيما في مجال التعليم ، فأسست المدارس الحديثة لتعليم أبنائها وأنشأت أول مدرسة يهودية بمدينة طرابلس عام 1804م ، وكانت تدرس بها اللغتان العبرية والفرنسية، وفي عام 1810 افتتح المنصرون الكاثوليك مدرسة للأطفال المسيحيين في طرابلس ، والتحق بها عدد قليل من أطفال الولاية أيضاً[41] .

أما بالنسبة للأوضاع الصحية في طرابلس فكانت متردية فقد عانت القبيلة من الأمراض والأوبئة، التي قضت على كثير من السكان ، حيث افتقرت القبيلة إلى أبسط المرافق الصحية، كما افتقرت إلى الدواء والأطباء والممرضين ، مما دفعهم إلى معالجة أمراضهم عن طريق الوسائل البدائية كالكي بالنار والأعشاب والأحجبة ، وكان سوء المعالجة سبباً في ارتفاع نسب الوفيات بين المرضى في المجتمع[42]، وانعكس التردي في الوضع الصحي إلى تفشي الأوبئة التي حدثت في البلاد ، ففي عام 1785م تفشى وباء الكوليرا وقضى على حوالي 500شخص من مدينة طرابلس وحدها، وفي عام 1785 م حصد مرض الطاعون ربع سكانها البالغ تعدادهم حوالي 14 ألف[43] ، فيصف الرحالة الأسباني باديا لبليك المعروف باسم على بك العباسي مدينة طرابلس في زيارته لها في عام 1805م فقال " لقد أنقص الطاعون كثيرا من عدد السكان بالمدينة إذ قضى في الغالب على أسر بكاملها، وما يزال يشاهد المرء حتى الآن بعض المنازل المهجورة أو المنهارة بسبب هذا الوباء " واستمرت موجات الأوبئة في الولاية طوال العهد القرمانلي ، ففي ابريل 1820م ، اجتاح الوباء مدينة طرابلس ، وفتك الوباء في عام 1826م فتكاً شديداً بأهالي العجيلات وتاجوراء[44]، في ظل الفقر الذي كان يعانى منه الأهالي ، فأن هناك أشارات كثيرة

(36) يوميات الطبيب جوناثان كودى في قلعة طرابلس الغرب 1803 -1805 م ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ، طرابلس ، مركز الجهاد، 1982 م ، ص55 .
(37) خليفة التليسى ، مرجع سابق ، ص110.
(38) تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص31.
(39) خليفة محمد التليسى ، مرجع سابق، ص143 .
(40) تيسير بن موسى ، مرجع سابق، ص34 .
(41) عبدالكريم ابوشويرب وآخرون ، مدرسة الفنون الصنائع الإسلامية ،طرابلس، منشورات مركز الجهاد ، 2000م ، ص50-52.
(42) ريتشارد توللى ، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عمر الديروای، طرابلس، مكتبة الفرجانى، 1989م، ص199.
(43) أمال أمحمد الطالب ، مرجع سابق، ص34.
(44) خليفة محمد التليسى ، مرجع سابق، ص142،143 .

تعبر عن موت الناس من الأمراض والأوبئة،التي كانت سريعاً ما تستفحل وتتحول إلى موجة وبائية ، بسبب عدم اكتراث السلطات العثمانية بالإجراءات الصحية واستخفافها بالحجر الصحي في الموانئ[45] .

كل ذلك قد أدى إلى اختلال عدد السكان الأمراض وقوة انتشارها في مختلف جهات طرابلس، ويضاف إلى هذا حدوث الكوارث الطبيعية التي أدت إلى تضرر الاقتصاد والذي أثر سلبا على الحالة الصحية والمعيشية، كما أنعكس بدوره على الوضع الديمغرافي بعدم استقراره من حيث العدد والكثافة، ويعود هذا التدهور في الجانب الاجتماعي لعدم اهتمام الحكام الأتراك بأمور الصحة كما أن هذا الإهمال أدى إلى انتقال العدوى من المشرق وانتشار الأمراض.كذا عدم التزام السكان بالقواعد الصحية، وانعدام الأدوية ما عدا بعض الحشائش والعقاقير.

إن عدم انصهار أهالي طرابلس في البوتقة العثمانية خلال تلك السنين، يعود إلى عدم إمكانيتهم اختراق البناء الاجتماعي المتين للمجتمع الطرابلسي، الذي هو امتداد للمجتمع العربي الإسلامي، ووجود حاجز عرقي حضاري بين المكونين العربي والتركي.

ولم ينتج أيضاً عن وحدة الدين اندماج اجتماعي كان من شأنه تخفيف هذه الهوة وتجسيرها ، فقد بقي التأثير الحضاري التركي ضعيفاً في مجتمع طرابلس حيث قضى العثمانيون معظم سنوات حكمهم لطرابلس في صراع مع الأهالي الذين تعددت انتفاضاتهم وتمرداتهم على السلطات العثمانية ، فضلاً عن أن الموظفين الأتراك عدوا أنفسهم طبقة فوقية متعالية نظرت إلى الأهالي نظرة دونية[46].

طبيعة علاقة السلطات بالقبيلة

لقد مرت فترة الحكم العثماني لطرابلس بعد مراحل تميزت كل مرحلة عن الأخرى بمسارات انعكست نتائجها على المنطقة ، فشكلت مع مرور الزمن شرخاً اجتماعياً عميق الأثر، لم تكن تلك النتائج السلبية أو الايجابية في بعض الأحيان من صنع السلطات العثمانية ، ولم يكن للمجتمع الطرابلسي يد في أحداثها بالشكل الذي حدثت به، وإنما جاءت نتيجة لبعدها عن المركز ولشعور العنصر العثماني بالغرور والتعالي، يقابله شعور المجتمع بالظلم متأثراً بالطابع البدوي الذي يرفض الخضوع للنظام والسلطة إضافة إلى جهل بعض الحكام بأسلوب الحكم والإدارة[47].

كانت السلطات في طرابلس تحتكر أدوات العنف السياسية والعسكرية وتمتلك موارد المجتمع الاقتصادية عبر النظام الضريبي ، ذلك ما جعل علاقة المجتمع القبلي بهذه السلطات علاقة متوترة ، فلاندماج بين السلطات القرمانلية وبين القبائل بقي محكوماً بجدلية الإخضاع والتمرد ، وكان منطق النظام القبلي يقوم على أن القبائل حينما تعيش علاقات سلم مع السلطات كانت تتوجه إلى داخلها لتنشب علاقات صراع في فضاءاتها التقليدية ، أما حينما يتأجج الصراع بين القبائل شبه المستقلة والمستقلة والسلطات القرمانلية، فإن مظاهر الصراع الداخلي فيها وفي ما بينها يختفي.

بيد أن الوضع تغير في نهاية الحكم القرمانلي فقد اعتمد القرمانليون على العناصر المحلية بما في ذلك فئة الكراغلة في حكمهم[48] ، فانخرط قسم منهم في وظائف الدولة كإداريين أو جنود محاربين أو رؤساء بحر مجاهدين وغير ذلك من الوظائف التي لا تشكل خطورة على الهيمنة التركية بل كانت تزيدها سطوة ، بينما ظلت الوظائف الكبيرة الحساسة كقيادة الجند والشرطة وإدارة الشؤون السياسية بأيدي الأتراك ، وقسم آخر شارك في الديوان الاستشاري ممن كانوا يسمون أعيان المدينة ، كما أوجدت السلطات

---

(45) عقيل محمد البر بار ،" سكان ليبيا "، أعمال ندوة المجتمع الليبي ...، مرجع سابق ،ص62.
(46) تيسير بن موسى ، مرجع سابق ، ص25 .

(47) محمود علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2000م، ص165.
(48) روسي ، مرجع سابق ،ص273 .

التركية وظيفة شيخ البلد والتي صار يتولاها أحد أعيان المدينة ، يقوم بمساعدة الباشا في إدارة الشؤون المحلية ، مثل الإشراف على السوق وجباية الرسوم من أرباب الحرف والصناعات ، ويتقاضى مرتباً من ميزانية الدولة ومن عوائد الرسوم التي يساعد في جبايتها(49)، كما أنهم جعلوا لغة البلاد الرسمية العربية مع التركية ، فغدت اللغة العربية لغة الدوائر الرسمية والتعليم والقضاء(50).

ومن ناحية أخرى فقد استخدم بعض الحكام بعض أفراد القبائل في الجيش وبالتالي قاتل هؤلاء الجنود أبناء جلدتهم من اجل البقاء على الحكم القرمانلي في البلاد ، وعلى ذلك مشاهد كثيرة منها وحملته التأديبية التي قائدها نجلي يوسف باشا علي وإبراهيم ضد قبيلة ورفله وحلفائها من أولاد سليمان والقذاذفة في موقع يعرف (بقلعيات الحطابة) قتل فيها حوالي أربعمائة رقبة والتي أشار إليها كتاب من يوسف باشا القرمانلي إلى محمد شلبي بيت المال يصف فيه تلك الواقعة حيث كانت قوة الحملة من عشرة آلاف مقاتل اغلبهم من قبيلتي السبيعة والغنايمة ويذكر أن اغلب الغنائم أخذها رجالهما (51)، غير أنه لا توجد شواهد واضحة على انضمام أبناء القبائل في الجيوش العثمانية في أوقات النفير العام .

ويمكن القول إن هذه الخصوصية هي التي جعلت القبيلة تتدخل في الروابط الأسرية بشكل صارخ ، فهي شرط من شروط تعريف الفرد ، وهي شرط للترقي إلى المراكز القيادية ، وهذا ما جعلها تمثل أداة للتغيير السياسي ، وكلما لوحظت صراعات داخلية حول السلطة سرعان ما يتم الاستنجاد بالقبيلة ويتم تجنيدها والتهديد بها ،أن القبيلة تتحول في هذا النظام إلى وسيلة احتماء للفرد من الدولة ، ووسيلة للدولة للاحتماء من الفرد .

لقد كانت علاقة الدولة بالمجتمع المحلي وبالأرياف علاقة جبائية بالأساس ، وهذا ما أدى إلى أنهاك المجتمع وإضعافه وقد استعملت لذلك عدة هياكل ردعية داخل القبائل إلى جانب أجهزتها العسكرية والإدارية ولذلك استطاعت السلطات إلى حد كبير عبر الجند والأوجاق وغيرها إثبات حضورها وضرب خصومها كلما تمردوا عليها.

اتخذت الجباية أشكالاً مختلفة أهمها المجبى والأداء و القانون والعادات والعشور يقوم اللزامة (جامعو الضريبة) ووكلاءهم بالاعتماد على المزارقية (المزراق: الرمح) وهي تسمية توحي بالوظيفة العسكرية الموكلة إليهم أثناء عملية الجباية, فالزمولهي قبائل المخزن في حال عسكرتهم وهي ظاهرة مغاربية عامة على الرغم من اختلاف التسميات(52)

ومن ناحية أخرى فإن السلطات العثمانية تركت لنفسها حق تعيين القضاة ، فكان ذلك من اختصاص شيخ الإسلام وبفرمان من السلطان غير أن القبائل الليبية كانت تنصيب القضاة من قبل المواطنين أنفسهم، حيث يتولون اختيار شخص لتولي مهام القاضي وفض المنازعات فيما بين السكان تتوفر فيه الشروط المطلوبة في القاضي ، كالعلم بأحكام الشريعة الإسلامية ، والأمانة والعدل والنزاهة وغيرها ، حيث نجد عائلات معينة تخصص أفرادها بالقضاء بين الناس وغالباً ما يكون تداول هذا المنصب وراثياً يرثه الابن عن الأب ، حيث يتم ترسيم القاضي الجديد من قبل شيخ القبيلة أو المنطقة بموافقة وجهاء واعيان المنطقة، وحين يشغر مكان القاضي يقوم هؤلاء باختيار شخص من أسرة القاضي السابق ، ويفضل أن يكون ابنه إن كان قادراً ويمتلك من الصفات التي تمكنه من استلام هذا المنصب ، وإلا يختار أفضل المتعلمين والقادرين من تلك الأسرة(53)

---

(49) تيسير بن موسى ، مرجع سابق ، ص29-30 .
(50) روسي ، مرجع سابق ، ص273 .
(51) وثيقة رقم 21 من كتاب رودولفو ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي ، ت طه فوزي ، القاهرة ، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية ، 1961م ، ص63_65.
(52) محمد نجيب بوطالب ، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2002 ، ص164.
(53) هورنمان وجوردن ، رحلتان عبر صحراء طرابلس ، طرابلس ، دار الفرجاني ، 1974م ،ص128.

خلفت السياسة الاقتصادية العثمانية في الولايات العربية خلال القرن التاسع عشر آثاراً مدمرة، لأن الدوائر الحكومية العثمانية صبت اهتمامها على خلق ظروف مناسبة لسحب أكبر قدر ممكن من الأموال للإنفاق على الجيش، وتلبية المطامع المتنامية للطبقة الحاكمة. وازداد سلب المناطق الخاضعة للحكم العثماني بسبب الإخفاقات العسكرية المتتالية وفساد الحكام، والصراع بين الحكام المحليين وتسابقهم في نهب المناطق الخاضعة لإدارتهم. كل ذلك أدى إلى انحطاط الاقتصاد في الولايات العربية من الدولة العثمانية(54).

وفي ظل تلك الأوضاع تأثر حرفيي المدن ، وأصيبت الحرف بالركود وقيدت بقانون الحرف العثماني لعام 1773م مما أدى إلى عجزها عن مسايرة التقدم الصناعي (55)، وكانت الطريقة الوحيدة المضمونة التي يمكن للتجار وأغنياء المدن حماية أموالهم بها من تسلط ونهب الحكام العثمانيين هو كنزها وسحبها من التداول. وكانت التجارة الخارجية هي المجال الوحيد الذي يطمئن له رأس المال المحلي، ولكنه سرعان ما تحول من أيديهم إثر المنافسة الشديدة التي لقوها من التجار الأوربيين المحميين من تعسف السلطات العثمانية، والمشمولين بحماية السفراء والقناصل الأوربيين (56).

ووصلت أزمة الاقتصاد العثماني ذروتها مع نجاح الثورة الصناعية في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر. وأصبح ميزان التجارة الخارجية للدولة العثمانية خاسراً للمرة الأولى بعد أن استولى رأس المال الأجنبي بالتدريج على المواقع القيادية في جميع المجالات الاقتصادية. الأمر الذي أدى إلى تحول الدولة العثمانية برمتها إلى شبه مستعمرة أوروبية تحت وطأة الديون والاحتكارات الأوروبية, وكما هو معروف رافق التوسع الاقتصادي الأوروبي في الدولة العثمانية، تدفق منتجات صناعية رخيصة بالمقارنة مع المنتجات الحرفية التقليدية في الولايات العثمانية، مما أدى إلى تدهور الحرف التقليدية، وقضى على أية إمكانية لتطورها نحو إنتاج صناعي حديث(57).

ومما سبق يمكن استخلاص الأتي

أولاً: إن ضعف المجتمع القبلي في طرابلس، وعجزه عن الظهور والسيطرة على الأحداث ، أو القيام بدور متميز فيها ، على الرغم من أن الفرصة كانت سانحة أمامها في ظل الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، يرجع إلى غياب النخبة المحلية الفاعلة ، مما حال دون أخذ زمام الأمور وجعلها بعيدة المنال ، واكتفي قسم من هذه الفئة في ظل هذا الوضع بتأجيج هذه الصراعات وأدى القسم الآخر دور المتفرج ، وعول قسم ثالث على طلب المساعدة من الدولة العثمانية لحسم الأمر.

ثانياً: أن تباين مواقف المجتمع في طرابلس من تلك الصراعات، وعجزهم عن القيام بدور فعال، أدى إلى تراجع المنطقة سياسيا وجرها إلى التبعية المباشرة ،هذه الأحداث ساعدت على نهاية الحكم القرمانلي، وبداية الحكم العثماني المباشر لطرابلس .

---

(54) لوتسكيف.ب.، التاريخ الجديد للدول العربية، موسكو، 1966، ص 21.
(55) فولني ك.ف ، رحلة فولني إلى سورية ومصر خلال 1783-1784 -1785، ج2 ، موسكو ،1791م، ص 556.
(56) كوتلوفل.ن.: تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي، منتصف القرن التاسع عشر – 1908. ترجمة: سعيد أحمد. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1981، ص 15.
(57) شتيباتفريتس، بدايات العصر الحديث في الشرق الأدنى. آفاق جديدة أمام المؤرخين، مجلة الأبحاث، السنة 20، ج1، مارس 1967م، ص 26-27.

ثالثاً: حافظت السلطات العثمانية على أوضاع مجتمع طرابلس على ما كانت عليه من تقاليد وأنظمة وقيم قبلية واستثمرت كل ذلك لخدمتها، فبقيت التركيبة الاجتماعية لولاية طرابلس كما هي، غير أن المتغيرات الاقتصادية التي شهدتها الولاية كان لها أثار كبيرة على مكونات المجتمع المحلي.

رابعاً: وظفت الزعامات القبلية والموظفون الحكوميون والأعيان نفوذهم لتحقيق أكبر قدر من المكاسب والمصالح الشخصية على حساب الفئات الأخرى ، حيث كان الفقر والعوز صفتين غالبتين على الأوضاع المعيشية لأهالي طرابلس في العهد العثماني الثاني ، ويعزى ذلك إلى السياسة الضريبية المجحفة المتبعة من قبل السلطات العثمانية تجاه تلك الفئات.

خامساً: أثرت الكوارث الطبيعية كالقحط وقلة الأمطار سلباً على اقتصاد البلاد المتمثل في الزراعة ، ناهيكً عن الأمراض والأوبئة التي تفشت دافعةً الكثير من الأهالي للهجرة نحو المناطق المجاورة، بذلك تغيرت نسبياً التركيبة الاجتماعية لأهالي طرابلس.

سادساً: أن سوء الأحوال الاجتماعية في البلاد انعكست سلباً على التعليم والصحة ،علي الرغم من محاولة السلطات الرقي بهما بإقامة بعض الإصلاحات، غير أنها لم ترتق إلى المستوى المطلوب.

قائمة المراجع

أولا : الوثائق

الوثائق الغير منشورة

1- ملف التعليم ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس.

2- ملف الضرائب ، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس.

الوثائق المنشورة

1- سالنامة ولاية طرابلس الغرب ، بتاريخ 1894م .

2- بلدية طرابلس، بلدية طرابلس في مائة عام 1870-1970، دار الطباعة، طرابلس،1971م.

ثانياً: الصحف

1- صحيفة العصر الجديد ، العدد ، السنة الأولي ، بتاريخ 1912م .

2- صحيفة المرصاد ، العدد الحادي والعشرين ، السنة الأولى ، 1913م .

ثالثاً ، الكتب العربية والمترجمة

1. أتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي الإسلامي حتى 1911، ترجمة خليفة محمد التليسي، ط2 ، الإسكندرية ، الدار العربية للكتاب ، 1991.
2. أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، د.ب، الفنية الحديثة، ، 1971.
3. أحمد صدقي الدجاني، وقائع من تاريخ ليبيا الحديث (1881-1911) ترجمة عبدالسلام أدهم، بيروت، دار صادر، 1974م .
4. إسماعيل كمالي، سكان طرابلس الغرب، ترجمة حسن الهادي، طرابلس، منشورات مركز الجهاد، 1997.
5. الصالحين جبريل الخفيفي، النظام الضريبي في ولاية طرابلس الغرب 1835-1912م ، طرابلس، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2000م .
6. آمال إمحمد الطالب ، الحياة الأسرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1835م-1911م)، طرابلس، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2006م .
7. تيسير بن موسى ، المجتمع العربي الليبي في العثماني ، طرابلس الدار العربية للكتاب،1988.
8. رودولفو ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي ، ت طه فوزي ، القاهرة ، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية ، 1961م .
9. ريتشارد توللى ، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عمر الديروای، طرابلس، مكتبة الفرجانى، 1989م.

10. حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ، القاهرة، مؤسسة سجل العرب ، 1962م.

11. خليفة محمد الأحول، الجالية اليهودية في ولاية طرابلس 1864-1912م، طرابلس، جامعة الفاتح، 1885م .

خليفة محمد التليسى، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، مالطا، الدار العربية للكتاب، 1974م.

12. شارل فيرو، الحوليات الليبية ، ترجمة محمد عبدا لكريم الوافي، ط4، ، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 1998م.

13. شوقي عطاالله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ، 1977م .

14. عبد اللطيف أحميدة ،المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،د.ت.

15. عبدالكريم ابوشويرب وآخرون، مدرسة الفنون الصنائع الإسلامية ،طرابلس، منشورات مركز الجهاد، 2000م

16. محمد بن عثمان الحشائشي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا 1895، تقديم مصطفي المصراتى، دار بيروت، 1960م.

17. محمد الكوني بالحاج ، التعليم في مدينة طرابلس في العهد العثماني الثاني 1835-1911، طرابلس ، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 2000م.

18. محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002 .

19. محمود علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2000م،

20. محمود ناجي ، طرابلس الغرب، ترجمة ، أكمل الدين محمد إحسان، دار مكتبة الفكر ، طرابلس، 1973م.

21. فولني ك.ف ، رحلة فولني إلى سورية ومصر خلال 1783-1784 و1785، ج2، موسكو ،1791.

22. لوتسكيف.ب.: التاريخ الجديد للدول العربية. موسكو: 1966.

23. كوتلوفل.ن، تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي، منتصف القرن التاسع عشر – 1908. ترجمة، سعيد أحمد، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1981.

24. نيقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، بيروت ، 1966م.

25. هـ .س. كاوير ، مرتفع الآهان الجمال (استكشاف الهياكل الثلاثية والمواقع المغليثية في طرابلس) ، ترجمة أنيس زكي حسن ، طرابلس، دار الفرجانى ، 1987م

26. هورنمان وجوردن، رحلتان عبر صحراء طرابلس ، طرابلس ، دار الفرجاني ، 1974م.

27. يوميات الطبيب جوناثان كودى في قلعة طرابلس الغرب 1803 -1805 م، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، طرابلس، المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 1982م.

28.

رابعاً: البحوث والمقالات

1. بايرامكودامان ،" السياسة الثقافية التي اتبعها السلطان عبدالحميد الثاني في سياسة لليبيا تجاه الامبريالية الغربية " ، المؤتمر الثاني للعلاقات العربية التركية ، ج2 ، طرابلس، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، ، 1982م.
2. شتيباتفريتس، بدايات العصر الحديث في الشرق الأدنى. آفاق جديدة أمام المؤرخين. مجلة الأبحاث، السنة 20، ج1، مارس 1967م.
3. صلاح الدين حسن السوري ، " وضع العائلة في التركيبة الاجتماعية الليبية وتأثيرها السياسي " أعمال ندوة المجتمع الليبي (1835-1950) ، تحرير محمد الطاهر الجراري، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، طرابلس، 2000م
4. عقيل محمد البر بار ،" سكان ليبيا "، أعمال ندوة المجتمع الليبي (1835-1950).
5. محمد أمحمد الطوير " دور المسجد في إثراء الحياة الفكرية بولاية طرابلس الغرب خلال الحكم العثماني 1551-1911" ، أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات، زليطن 1988م، طرابلس، منشورات المركز الليبي للدراسات والمحفوظات التاريخية ، 1992م.
6. محمود صالح المنسي ، " بريطانية والحملة الايطالية على طرابلس الغرب " ، دراسة وثائقية ، مجلة البحوث التاريخية العدد 2 طرابلس : 1980م.
7. محمود الديك ، " بعض الملامح الثقافية من خلال سجلات المحاكم الشرعية خلال العهد العثماني "من كتاب أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات، زليطن 1988م .

8.

خامسا: الكتب الأجنبية

1. Evans-Pritchard E.E, The Sanusie of Cyrenaica (London,Oxfordprees 1949).